

التفكير النحوي النصي عند البلاغيين والمفسرين القدامى

Textual grammatical thinking among ancient rhetoricians and interpreters

عقيلة لعشي

أستاذة محاضرة قسم¹، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغات والآداب/جامعة تيزي وزو،

الإيميل المهني: akila.lachebi@ummto.dz

القبول: 2025-04-06

الاستلام: 2025-01-04

ملخص: يرى الكثير من الباحثين المهتمين باللسانيات النصية أنّ العلماء القدامى قصّروا تقصيرا واضحا في تناول النصوص ودراستها دراسة شاملة، وأنهم لم يتعدّوا حدود الجملة التي تعتبر الوحدة الصغرى للكلام في تناول المعاني ودراستها، والسبب في ذلك ما قدّمته كتب البلاغة والنحو القديمة والتي قصّرت في ذلك حيث انصبّ اهتمامها على نحو الجملة فحسب. لكنّ المتصفح لكتب تفسير القرآن الكريم وعلومه وإعجازه وكتب النقد وكتب النحو العربي بدءا من القرن الثالث الهجري يلحظ أنّها عاجلت الكثير من المفاهيم النصية التي تصبّ في نحو النص والتحليل النصي، وأنّها حددت عناصر كثيرة كاتساق النص وانسجامه. لذا يحاول هذا المقال تسليط الضوء على نظرية نحو النص في الدراسات القديمة، والبحث عن بعض المبادئ والقواعد للدرس النحوي النصي في كتب البلاغة والتفسير وإعجاز القرآن لكشف معايير النصية في بحوث القدامى، والتي قامت على أسس متينة أسست اليوم للكثير من مفاهيم الدراسات الحديثة.

كلمات مفتاحية: نحو الجملة؛ نحو النص؛ علم البلاغة؛ علوم التفسير.

Abstract : Many researchers interested in textual linguistics believe that the ancient scholars clearly fell short in dealing with texts and studying them comprehensively, and accused them of not going beyond the limits of the sentence, which is considered the smallest unit of speech in dealing with and studying meanings. The reason for this is what was presented by the ancient books of rhetoric and grammar, which fell short in that, as Her interest was focused only on the sentence. However, one who browses

¹ المؤلف المراسل: عقيلة لعشي، الإيميل المهني: akila.lachebi@ummto.dz

books on the interpretation of the Holy Qur'an, its sciences, and its miracles, books of criticism, and books of Arabic grammar starting from the third century AH will notice that they dealt with many textual concepts that flow into textual structure and textual analysis, and that they identified many elements such as consistency and coherence of the text. Therefore, this article attempts to shed light on the theory of textual grammar in ancient studies, and search for some principles and rules for the textual grammatical lesson in the books of rhetoric, interpretation, and the miracle of the Qur'an to reveal the standards of textuality in the research of the ancients, which were based on solid foundations that establish today many concepts of modern studies.

Keywords: sentence grammar; towards the text; The art of eloquence; Interpretation sciences.

1. مقدمة:

تأسس علم النص في الستينات من القرن المنصرم وتبلورت مفاهيمه وأُستت معايير على يد جماعة من الباحثين الغربيين والعرب، وقد اتهم هؤلاء العلماء المعاصرين العلماء القدامى بتقصيرهم في وصف كلّ مكونات النص وإبراز مفاهيمه، وأنهم لم يمارسوا أسس التحليل النصي ومناهجه فلم يتعدّوا حدود الجملة في تحليلاتهم مثلما توصلت إليه دراساتهم الحديثة، فما مدى صحّة هذا الزعم؟ ألم يتعدّ العلماء القدامى في تحليلاتهم حدود الجملة أي الوحدة الصغرى في الكلام، فهل قصّروا في تحليل النصوص تحليلاً شمولياً أم أنّ لهم إسهامات في لسانيات النص والنظرة الشموليّة للنصوص؟

2-1- نحو الجملة في التراث العربي القديم:

اعتنى الدرس اللساني العربي القديم بنحو الجملة عناية فائقة، واعتبر العلماء العرب القدامى "الجملة" وحدة الدرس النحوي والبلاغي، وهي أكبر وحدة لغوية قابلة للوصف والتحليل، ودارت كلّ أبحاثهم في إطارها فصاغوا لها قواعد خاصة.

وكان القرآن الكريم وكلام العرب مصادر الاحتجاج والفصاحة لاستقراء الجملة منهما لوصفها وإخضاعها للملاحظة والتحليل لاستنباط منها قواعد الإعراب والنحو ومعايير البلاغة، وتوقفت الجملة عند حدود زمانية ومكانية معروفة وضعها البصريون المستقرئون لكلام العرب، فلم تتعد الرقعة الجغرافية للقبائل الستة المشهورة بالفصاحة ولا الحدّ الزمني الموصوف بالفصاحة والسلامة والموسوم بعصر الاحتجاج والفصاحة.

وكان الدافع إلى الاهتمام بنحو الجملة آنذاك دينيا وهو دفع اللحن والخطأ عن آيات القرآن الكريم لإعرابها إعرابا صحيحا، ومراقبة أحوال لفظ القرآن لنطقه نطقا سليما.

وقد تداخل مفهوم الجملة مع الكلام وهو ما يحسن السكوت عليه، طال أو قصر، ويحمل فكرة عامة، وذلك عند عثمان بن جني ت392هـ وعبد القاهر الجرجاني ت471هـ وأبي القاسم محمود الزمخشري ت538هـ..

عرّف ابن جني الجملة على أنّها "الكلام المفيد المستقل بنفسه، وأنّها على ضربين مركّبة من: مبتدأ وخبر، أو فعل وفاعل" (ابن جني، 1985، ص73).

وعرّفها الزمخشري على أنّها "الكلام المؤلّف إمّا من اسمين أسند أحدهما إلى الآخر، وإمّا من فعل واسم وسمّي كلاما" (الزمخشري، دت، ص21).

ويفهم من قولهما أنّ الكلام إمّا جملة اسمية من مبتدأ وخبر أو فعلية من فعل وفاعل، تحصل منه فائدة تامة ويوصل فكرة معينة.

ويوضّح موفق الدين يعيش بن يعيش ت643هـ شارح مفصل الزمخشري ذلك قائلا: "اعلم أنّ الكلام عند النحويين عبارة عن كلّ لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ويسمى الجملة" (ابن يعيش، دت، ص18).

واعتبر القدامى الجملة عنصر الكلام بما نفكر ونتكلم وأنّها أقصى ما تصل إليه الدراسات، وأنّ عناصرها اللغوية هي محور التحليل والنقد، وتمحورت مفاهيمها عندهم عند الإسناد سواء في الجملة الفعلية أو الاسمية، وعرّفوه "بضمّ إحدى الكلمتين إلى الأخرى على وجه الإفادة التامة".

ويلخص لنا الأستاذ تمام حسان وصف القدامى للجملة بمجموعة من القرائن النحوية والدلالية التي سمّاها بقرائن التعليق، وجعلها قسمين: (راجع: حسان، 1973)

1. قرائن لفظية: كالعلامة الإعرابية، والصيغة، والرتبة، والمطابقة، والتضام، والنغمة.

فالعلامة الإعرابية كالرفع في المرفوعات والنصب في المنصوبات، والصيغة كصيغ الأسماء والأفعال، والرتبة هي عمليات التقديم والتأخير والحذف والتعويض بين المفردات في التركيب، والمطابقة هي علاقة تطابقية بين الكلمات كمطابقة العدد للمعدود والصفة للموصوف والخبر للمبتدأ، والتضام هو التلازم بين المفردات في السياق، والنغمة تعرف بأنّها الإطار الصوتي الذي تقال فيه الجملة ويحدد معناها.

2. قرائن معنوية: كالإسناد وهو علاقة المسند بالمسند إليه، والمخالفة وهي مخالفة معنى لمعنى آخر.

ومجموع هذه القرائن اللفظية والمعنوية مجتمعة تكفل الصحة للجملة وتبيّن خواصها وتوضّح معناها.

2-2 _ نحو النص في التراث العربي القديم:

يختلف موضوع نحو النص عن موضوع نحو الجملة من حيث الموضوع والهدف والمنهج، فنحو الجملة يهتم بعمليات بناء الجملة من حيث تعلّق قرائنها اللفظية بعضها ببعض، وصوغ قواعدها، ووصف مستوياتها اللغوية من صوتية وصرفية ونحوية ومعجمية، أمّا نحو النص فهو دراسة الجملة إلى ما وراءها من وحدات كبرى، والسعي إلى معرفة القواعد التي تحكم بنية النص للنفوذ في أعماقه، والوقوف على جميع العلاقات التي تساهم في إنتاج دلالاته.

يهدف موضوع نحو النص إلى وصف ودراسة الأبنية اللغوية النصّية لإبراز صور التماسك والترابط النصّي، وكيفية انتظام أجزاء هذه النصوص وارتباطها فيما بينها لتحقيق الغرض منها، ويرى أنّ الجملة الواحدة غير كافية للوصف اللغوي الشامل، كما أنّ نحو الجملة يهمل السياق الاجتماعي أو النفسي أو غيره الذي صيغ فيه النص والذي يشكّل أهمّ عنصر في أداء المعنى.

ونحو النص ليس وليد الفكر اللساني الحديث بل إنّ التراث العربي القديم زاخر بالدراسات النصّية، وكلها تدور في فلك القرآن الكريم وبلاغته حتى اعتبرت البلاغة العربية القديمة ميراثاً للسانيات النصّية، وأثيرت قضية الوحدة العضوية للنصوص القرآنية والأدبية منذ وقت مبكر جداً وهي التي أطلق عليها اليوم بـ"الوحدة النصّية".

2-2-1 _ نحو النص عند البلاغيين القدامى:

يرى علماء البلاغة أنّ بلاغة القرآن الكريم تفوق في وصفها سائر البلاغات، وأنّ النص القرآني يتسم بكل صفات النص، ويجمع في بنيته كل أشكال التعبير الراقى حتى إنّهم يقصرون لفظ "النص" مثل علماء أصول الفقه على نص القرآن الكريم فحسب.

وأدركوا في وقت مبكر أنّه وحدة كليّة مترابطة الأجزاء، تتابع فيه الجمل وفق نظام محكم، متسقة فيما بينها ومنسجمة أشدّ الانسجام مع سياقاتها وأسباب نزولها.

ودرس البلاغيون القدامى مظاهر نصّية كثيرة وترددت في كتبهم مصطلحات الاتّساق والانسجام وهي توحى إلى وعيهم بتماسك النص وارتباط أجزائه نحويًا ودلاليًا، واستخلصوا طرائق كثيرة يسلكها النص اتّساقًا وانسجامًا مثلما قالت به النظريات الحديثة، منها:

1 . مبدأ الوصل والفصل: قيل عن هذا المبدأ إنه من أصعب ضروب البلاغة، ومن أتقنهما وعرف مواضعهما سهل عليه امتلاك بقية الأبواب البلاغية، فما البلاغة إلا معرفة مبدأ الوصل من الفصل.

والوصل هي الطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منظّم، بواسطة روابط متنوّعة تصل بين أجزاء النص (خطابي، 1991، ص23). ومن الأدوات النحوية التي تحقق الوصل: حروف العطف وحروف الشرط الجازمة وغير الجازمة، أدوات التشبيه والتمثيل والتوكيد والبدل.

أمّا الفصل أو القطع فهو ترك الرابط، ولا يعني انقطاع العلاقة الدلالية بين الكلمتين أو الجملتين.

والوصل مصطلح بلاغي قديم يقابله في اللسانيات النصية مبدأ الاتّساق أو السبك *cohésion* والذي هو "تتابع البناء الظاهري للنص عن طريق استخدام وسائل الربط النحوية والقاعدية المختلفة" بخولة، (2015_2016، ص102) ، ويحقق هذا المبدأ اتّساق النص وترابط أجزائه.

وقد حظي هذا المبدأ باهتمام كبير من البلاغيين القدامى كعبد القاهر الجرجاني ت471هـ ويوسف أبي يعقوب السكاكي ت626هـ والخطيب جلال الدين القزويني ت739هـ واعتبروه خاصية مهمة تحقق مبدأ النصية.

يتمحور رأي الجرجاني في باب الوصل والفصل حول "ما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منشورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى" (خطابي، 1991، ص100).

وانطلق الجرجاني من مجموعة من القواعد التي تضبط اتّساق مفردات وجمل النص، فما ربط بين مفردات وجمل النص بحروف العطف الظاهرة كان من باب الوصل، وما لم يربط بينها بحروف العطف كان من باب الفصل.

فمن أمثلة الوصل قولك: . أكرمتُ زيدًا وعليًا.

. مررتُ برجلٍ حُلِفُهُ حسنٌ وحُلِفُهُ قبيحٌ.

فالكلمتان (زيد) و(علي) مترابطتان بواو عاطفة، والجملتان (خُلِّفه حسنٌ) و(خُلِّفه قبيحٌ) أيضا مترابطتان بواو عاطفة، إذن هذا "وصل" بين مفردتين، وجملتين صفتين لنكرة.

ومن أمثلة الفصل ما يؤدِّيه كل من النعت والتوكيد والبدل من الربط والاتساق في النص، فالنعت والتوكيد والبدل في الحقيقة عطف لكن دون أدوات، فالفصل ترك الرابط أو الأداة كقولك:

. جاءني زيدٌ الظريفُ.

. جاءني القومُ كلُّهم.

. جاءني الطالبُ محمدٌ.

فالمفردات (الظريفُ) و(كلُّهم) و(محمدٌ) على الترتيب: صفة وتوكيد وبدل، وهي مواضع فصل.

ومن فصل الجمل قوله تعالى: ﴿ألم ذلك الكتابُ لا ريب فيه﴾ [البقرة، 1. 2] فجملة (لا ريب فيه) بيانٌ وتوكيدٌ وتحقيقٌ، وهي خالية من العاطف، وما جعلها خالية من العاطف أنّ لا شيء تتميز به عما سبقها لتحتاج إلى ضمّ يضمّها إلى ما سبقها وعاطف تعطف عليه، فحرف العطف في هذه المواضع معنوي وهي كلّها من الفصل.

ويذهب الجرجاني بعيدا في باب الوصل ويسوق أقيسة دقيقة في فنّ القول يقلّ نظر الناس فيها كأن ينتقل من عطف جملتين متجاورتين إلى عطف جملتين مفصولتين عن بعضهما بكلام آخر، ويضرب لهذا النوع المثال التالي:

تولوا بغتة فكان بينا تهيبني ففاجأني اغتبالا

فكان مسير عيسهم ذميلا وسير الدمع إثرهم انهمالا

فالقارئ للبيتين يظنّ أنّ جملة (فكان مسير عيسهم ذميلا) معطوفة على جملة (ففجأني اغتبالا) بينما هي معطوفة على (تولوا بغتة)، وما منع ذلك (كأن) التي تفيد التوهّم لأنّ ما دخلت عليه أداة التشبيه داخل في حيّز التوهّم، وقوله (فكان مسير عيسهم ذميلا) حقيقة، فامتنع أن تعطف هذه على تلك لأنّها إن جعلت معطوفة عليها صارت (مسير العيس) متوهّما بينما هو حقيقة (خطابي، 1991، ص105).

يبرهن هذا المثال على تماسك النص كلّهُ ثم راح يشرح البيتين شرحاً منطقياً ليبرهن على تماسك الأشرطة الأربعة بعضها ببعض.

واهتدى القدامى إلى هذا المبدأ من الاتّساق والتماسك بين أجزاء النص بوسائل ظاهرة وأخرى معنوية رغم صعوبة هذا الضرب من البلاغة، يقول الخطيب القزويني عن الوصل: "هو عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه، وتمييز موضع أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة فنّ منها عظيم الخطر، صعب المسلك، دقيق المأخذ، لا يعرفه على وجهه ولا يحيط علماً بكنّه إلاّ من أوتي فهم كلام العرب طبعاً سليماً ورزق في إدراك أسرارهِ ذوقاً صحيحاً" (القزويني، 2003، ص118).

ومن الشواهد التي ضربها القزويني عن الوصل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَلْ يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ، 2] ، فالوصل هنا هو العطف بين جمل فعلية ومعناه هنا إعطاء حكم الأوّل للثاني والتشريك بينهما، وإن لم يقصد ذلك تعيّن الفصل، ومن مواضع الفصل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة، 15.14].

2. الحبك:

الحبك أو coherence هو طريقة ربط الأفكار داخل النص حتى تتسجم دلاليًا ومنطقيًا مع السياق أو المقام، وهو من معايير النصية ويهتمّ بدلالة أدوات الربط ويتجاوزها إلى الجانب التداولي، ويقترب معناه من السبك، ويتردد هذا المصطلح الذي أتت به النظريات الحديثة في كتب البلاغيين القدامى بكثرة.

يرى محمد أحمد بن طباطبا ت322هـ أنّ الشاعر الحق هو الذي يحسن حبك أبياته في القصيدة حتى تتألف وتتجانس لفظاً ومعنى، وليس الشعر عنده مجرّد نظم في موضوع من الموضوعات، وتوالي أبياته بوزن وقافية، بل هو صناعة يلعب فيها الفكر دوره الرائد المميّز، فهو الذي ينظّم المعاني ويرتّب الأبيات ويحبك السياق (ابن طباطبا، 2005، ص4).

ومن مظاهر حبك النص في البلاغة "حسن الابتداء والتخلّص والانتهاء" يقول القزويني: "ينبغي للمتكلّم أن يتأقّق في ثلاثة مواضع من كلامه، حتى تكون أعذب لفظاً وأحسن سبكاً وأصحّ معنى" (القزويني، 2003، ص322) ، فحسن الابتداء هو حسن اختيار اللفظ للمعنى المراد وأن يظهر المقصود من الكلام من مفتحه فإن كان غزلاً فيظهر ذلك من البداية وإن كان هجاءً فكذلك، يقول عنه ضياء

الدين بن الأثير ت637هـ: "وفائده أن يُعرف من مبدأ الكلام ما المراد به، ولم هذا النوع؟" (ابن الأثير، دت، ص96).

وحسن التخلّص هو الانتقال من مطلع القصيدة أو الكلام إلى الموضوع القصد الذي يريده المتكلم بصلة وثيقة المعاني غير منقطعة عنها بالبداية، فلا بدّ أن يكون متلائماً مع البداية منسجماً الأفكار، وكذلك الخاتمة.

وما كان عكس ذلك أي الانتقال من البداية إلى الموضوع بما لا يلائمه سمي "اقتضاباً". وهذه المواضع الثلاثة من ابتداء وتخلّص وخاتمة إن أحسن فيها المتكلم كيفية رصفها وحبك أفكارها بلغ مراده من توصيل الفكرة وحمل المستمع إلى الانتباه والإصغاء وجنب نفوره من كلامه. ويلخص الجرجاني حبك النص وانسجام عناصره بنظرية "النظم" التي تحبك أجزاء الكلام في نسيج محكم وتربط الثاني بالأول أشدّ ارتباطاً للإفصاح عن المعاني والدلالات، وتبرز قيمتها في أنّها جمعت بين علوم كثيرة كالنحو والبلاغة والتفسير والتداولية، وتدعو إلى نظرة شمولية تمكّن القارئ من الوقوف على جمالية النص.

ويذهب أبو الحسن حازم القرطاجني ت684هـ في مذهب الحبك بعيداً إذ يضع قوانين لتمامك الفصول وانسجامها في القصيدة، ويقصد بالفصل بيتين إلى أربعة أبيات تحمل معنى معيناً وهذا في باب (طرق العلم بإحكام مباني الفصول وتحسين هيئاتها ووصل بعضها ببعض)، فمن القوانين التي وضعها لتمامك فصل واحد فيما بين أبياته:

. تناسب المسموعات بالمفهومات.

. حسن الاطراد.

. غير متخاذل النسيج.

. عدم التميّز والانحياز.

. مناسبة الغرض (خطابي، 1991، ص149-150).

ومناسبة الغرض مبدأ بلاغي اعتنى به السكاكي أكثر من غيره وسمّاه (مطابقة الكلام لمقتضى الحال). ومن القوانين التي وضعها القرطاجني لتمامك فصل بفصل "ترتيب الفصول وتقديم الأهمّ على المهمّ"، والتلميح في نهاية الفصل إلى معنى الفصل اللاحق والإشارة إلى معنى من معانيه.

3. التمثيل:

التمثيل في اللغة هو التشبيه وفائدته الجمع بين مفردات وجمل النص لتزداد قوّة، وقد تنبّه الجرجاني إلى مساهمته في اتّساق عناصر النص وترباطها، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظْنَ أَهْلِهَا أَتَمُّ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ ﴾ [يونس، 24]، أفاد التشبيه أو التمثيل في هذه الآية ترابط مجموعة من الجمل من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض أو حذف منها جملة، وحصل المعنى من الآية بتنسيق جملة ثانية على أولى وثالثة على ثانية وهكذا (خطابي، 1991، ص 127).

ومن مظاهر اتّساق النص وارتباطه أيضا "الاتساق المعجمي" ومن أمثلة ذلك "ردّ العجز على الصدر"، وهو تكرير لفظة وردت في صدر البيت في العجز، ووظيفتها ربط البيت بشطريه ومن أمثلة ذلك:

. سريعٌ إلى ابن العمّ يشتم عرضه وليس إلى داعي الندى بسريع
. يلفى إذا ما الجيش كان عرمرما في جيش رأي لا يقلّ عرمرم.

2-2-2 نحو النص عند المفسرين القدامى:

تنبّه المفسرون القدامى منذ وقت مبكر إلى أنّ النص القرآني آياتٍ وسور يشكّل وحدة نصيّة موحّدة رغم اختلاف أوقات نزول الآيات والسور وأماكنها وأسبابها، وأنّه تجمع بين آياته وسوره علاقات التماسك والانسجام النصي (الصرفي والنحوي والدلالي والتداولي)، وأنّ المغزى العام من السور لا يتأتى بآية واحدة، كما حاولوا جاهدين إظهار جمال أسلوبه وعظم شأنه بآليات ووسائل كثيرة ووقفوا إزاءه وقفة إجلال وتعظيم.

والحديث في هذا الباب لن يشمل وسائل الاتّساق من وصل وفصل وعطف وتمثيل ونظم وترادف وحدات إلى أخرى ممّا تناولناه في مبحث البلاغيين، بل سنقصر الحديث في هذا الباب على أسس أخرى لانسجام الآيات والسور ممّا غفلت عنه الكثير من كتب التفسير، فنذكر منها:

1. المناسبة والتناسب:

المناسبة أو التناسب بين الآي القرآني هو البحث عن علاقة آية بآية أخرى متقدّمة، ويشرع في البحث عن المناسبة حين تنقطع الصلة بين آية وآية أو آيات سابقات لإيجاد وجه المناسبة بين هذه وتلك (خطابي، 1991، ص 183).

فالبحث عن المناسبة إذن بين الآيات يتأتى حين يبدو للقارئ أنّ العلاقة بين السابقة وبين اللاحقة منقطعة، فوجب إذن تبرير موقع الآية من سابقتها لتحقيق مبدأ انسجام الوحدات، ولا يثار الحديث عن المناسبة حين تصل آية بأخرى بوسائل شكلية واضحة ومفهومة تحققها أدوات الوصل من عطف مثلاً. عبّر المفسرون عن انسجام الآيات والسور بمصطلحات منها: الترابط، الاتصال، التعلق، كيفية التناسب والمناسبة. وتجدد الإشارة إلى أنّ البحث عن المناسبة بين الآيات والسور لا تستنجد بالمقام ومقتضياته الذي قيلت فيها في غالب الأحوال.

من الآيات التي وجب البحث فيها عن المناسبة أي عن علاقة الآية بما قبلها قوله تعالى: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴿الأنفال 4. 5﴾، برر أبو عبد الله بدر الدين الزركشي 794هـ المناسبة بين الآيتين بالنظير الذي جعل تجاورهما مبررا.

ومن مناسبة فاتحة السورة لخاتمة التي قبلها اختتام سورة الواقعة بالأمر بالتسبيح وافتتاح سورة الحديد بالتسبيح، ويرى الزركشي أنّ المناسبة بين فواتح السور وخواتم ما قبلها وثيقة، وهو أسلوب جميل يوحى بانسجام سور القرآن لأنّها تحمل نفس المعاني، ومن السور التي تصوّر مناسبة خاتمتها لفاتحتها: سورة المؤمنين حيث جعل الله الفاتحة قوله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وجعل من الخاتمة قوله: ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾.

ومثل هذه المناسبة نوع من ردّ العجز على الصدر، والذي هو تكرير لفظة بين جملتين متجاورتين أو متباعدين لربطهما، وهي من مظاهر اتّساق وترابط النص.

2. الاتّحاد والتلازم:

يقصد السيوطي بالاتّحاد والتلازم ذلك التناسب الذي يربط سورة بلاحقتها وليس آية بسابقتها، وليستخلص هذا المبدأ فإنّه ينظر إلى المعاني المتحدة المشتركة بين سورتين متتاليتين كذكر الأصل في سورة ثم ذكر الفرع في السورة اللاحقة. ويسوق السيوطي أمثلة كثيرة عن مبدأ الاتّحاد والتلازم الذي يربط بين السور ويسجم معناها، ومن أمثلة ذلك:

. ذكر خلق الناس في سورة البقرة، ثم تصويرهم في الأرحام في السورة اللاحقة والتي هي آل عمران.

. ذكر مبدأ خلق آدم في سورة البقرة، ثم ذكر مبدأ خلق أولاده في سورة آل عمران.

. افتتاح سورة البقرة بخلق آدم من غير أب ولا أم، ثم ذكر نظيره في الخلق من غير أب في سورة آل عمران (خطابي، 1991، ص 203-204).

ويقول عن سورتي المائدة والنساء كأتهما سورة واحدة، اشتملتا على نفس الأحكام من القدرة والعظمة من المبتدأ إلى المنتهى.

3. ردّ العجز على الصدر:

يعتبر الكثير من المفسرين هذا المبدأ من مبادئ اعتلاق السور القرآنية وترباطها، ومن أمثلة ذلك قول السيوطي إنّ سورتي الواقعة والرحمان كأتهما سورة واحدة لتلازمهما واتحادهما في ذكر الكثير من العناصر المشتركة، إذ وردت في سورة الرحمان العناصر التالية: القرآن، الشمس، القمر، النبات، خلق السماء، خلق الجان، صفة القيامة، صفة الجنة، صفة النار.

وفي سورة الواقعة ترتيب العناصر التالية: القيامة، صفة الجنة، صفة النار، خلق الإنسان، النبات، الماء، النار، النجوم، القرآن.

يعني أنّه اختتمت سورة الواقعة بما افتتحت به سورة الرحمان من ذكر نفس العناصر وتكرارها، وهذا ما يسمّى برّد العجز على الصدر، وهو من مبادئ انسجام السور وترباطها (خطابي، 1991، ص 204).

كانت هذه المباحث الثلاثة التي ذكرناها في نظرة المفسرين إلى نحو النص لا تمثل إلا جزءاً صغيراً مما تناوله المفسرون في تفسير القرآن وتبيان وجوه انسجام سوره وآياته، ونكتفي بهذا القدر لأنّ الكلام فيه يطول، وكلام المفسرين عن القرآن الكريم طويل وعريض فتفسير أبي جعفر الطبري ت310هـ المعروف بـ (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) قدره ثلاثون ألف ورقة، ثمّ اختصره.

. خاتمة:

انطلقنا في هذه الورقة البحثية من سؤال وهو: هل عرفت الدراسات العربية القديمة نظرة شمولية للنص مثلما هو الحال في الدراسات الحديثة أم أنّها بقيت حبيسة إطار الجملة ؟

وللإجابة عنه استقرأنا الموضوع في كتب التراث واقتصرنا الحديث على نظرة البلاغيين والمفسرين إلى نحو النص دون غيرهم واقتصرنا القول في ذلك إلى أبعد الحدود كي لا يملّ القارئ. ومن جملة النتائج المستنتجة ما يلي:

- لم تغفل الممارسة النصية على العلماء العرب القدامى في تحليل النصوص، إذ تفتنوا إليها، وسعوا جاهدين إلى كشف آليات ووسائل "النصية"، وكانت انطلاقتهم في ذلك مع القرآن الكريم مفجر العلوم وأبرزت دراساتهم الكثير من المصطلحات والمفاهيم، فضلا عن عنايتهم بوجوه إعجاز القرآن.
- تنبّه القدامى إلى ضرورة تجاوز الوحدة الصغرى (الجملة) إلى ما ورائها من جمل وسياقات وظروف إنشائها لفهم مغزى النصوص.
- اعتنوا بالجملة هي الأخرى مثلما اعتنوا بالنص باعتبارها أهم عنصر في تشكيل النص والممهد له، وحديثهم عن نحو الجملة كان دقيقا وتمكنوا من رصد الكثير من آليات الاتساق خصوصا في المباحث النحوية.
- إنّ المصطلحات التي أتى بها نحو النص لم تكن نكرات في التراث العربي القديم، بل لها مقابلات عدّة، واستخدم الدارسون المحدثون أكثر المصطلحات القديمة في هذا الموضوع كالسبك والحبك والمقامية وغيرها.
- أفرزت الممارسة النصية عند القدامى جملة من الملاحظات والآراء، وهي اليوم موضوع الكثير من الدراسات النصية الحديثة.
- لم تكن عناية القدامى بالنص في درس مستقلّ مثلما هو الحال في الدراسات الحديثة، وإنّما كان حديثهم عن الممارسة النصية مجرورة إلى دروس أخرى كالبلاغة وعلوم القرآن والنقد، ورغم ذلك فقد قدّموا دراسات جادة ونظرات ثاقبة في نحو النص.
- يبدو أنّ أكثر العلوم قربا وشبها بنحو النص هو "علم التفسير" لغوص علمائه في خبايا البنى والتراكيب والنصوص الأوسع حجما كالسور القرآنية الطويلة كسورتي البقرة وآل عمران، وذلك لاستنتاج صلات ترابط شاملة، ومعظم مصطلحات المفسرين تتردد في الكتب الحديثة.
- قدّمت الدراسات القديمة كلّ المعايير التي تعتمد عليها النظريات الحديثة في مجال "النصية"، إذ تحدثت عن السبك والحبك والقصد والقبول والمقامية والتناص وغيرها، حتى إنّّه يمكن فهم الكثير من هذه المعايير الحديثة في كتب القدامى خصوصا في مفهوم "التناص".
- بطلان تمّ الباحثين المحدثين القائلة إنّ القدامى لم يعرفوا نحو النص ولم يتعدّوا حدود الجملة في التحليل، بل يمكن القول إنّهم أوصلوا معايير نحو النص إلى قمة العلوّ والإتقان.

— لم يترك القدامى باباً من أبواب المعرفة العربيّة الإسلاميّة إلّا وأحكموا معالجته وأتقنوه، وما مصطلحات ونظريات الباحثين في عصرنا إلّا قراءة جديدة وحديثة للتراث القديم، تتوافق مع متطلبات الحداثة والمعاصرة.

. قائمة المراجع:

— ابن الأثير، ضياء الدين، (دت)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مصر.

— ابن جني، عثمان، (1985)، اللمع في العربيّة، عالم الكتب، بيروت.

— ابن طباطبا، محمد أحمد، (2005)، عيار الشعر، دار الكتب العلميّة، بيروت.

— ابن مضاء، أحمد، (1982)، الردّ على النحاة، دار المعارف، القاهرة.

— ابن يعيش، موفق الدين، شرح المفصّل، (دت)، دار الكتب العلميّة، بيروت.

— بخولة، بن الدين، (2015_2016)، الإسهامات النصيّة في التراث العربي (رسالة دكتوراه)، قسم اللغة العربيّة، كليّة اللغات والآداب، جامعة وهران، الجزائر.

— حسان، تمام، (1973)، اللغة العربيّة معناها ومبناها، الهيئة المصريّة للكتاب، مصر.

— خطايي، محمد، (1991)، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

— الزمخشري، محمود، (دت)، المفصّل في صنعة العربيّة، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

— سيويوه، عمرو، (1988)، الكتاب، مكتبة الخانجي، القاهرة.

— القزويني، جلال الدين، (2003)، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلميّة، بيروت.